المنزل مكاناً صناعياً في شعر ابن الدهان الموصل

The house is an industrial place in Ibn al-Dahan's Mosul poetry

شهد موفق بدر
د. منتصر عبدالقادر الغضنفري
أستاذ
جامعة الموصل– كلية التربية للعلوم الإنسانية– قسم اللغة العربية

Shahad Muwafaq Badr
Dr. Montaser Abdel Qader Al-Ghazanfari
Professor
University of Mosul- College of Education for Human Sciences- Department of Arabic Language

Shahadmwafaq77@gmail.com

تاريخ الاستلام ٢٠٢٣/١٠/١٨ **تاريخ القبول** ٢٠٢٣/١١/١٣

الكلمات المفتاحية: المنزل، البيت، المكان الصناعي، ابن الدهان، الدار

Keywords: house, house, industrial place, Ibn al-Dahan, the house

الملخص

المكان الصناعي: هو المكان الذي ينشئهُ الإنسان باحثاً عن الأمان، فهو البيئة التي تحتضنه وتتكون من المنزل خاصة على اختلاف تسمياته كالدار أو البيت، وهو مكان سكن الإنسان وموضع استقراره بصورة عامة؛ إذ تتشكل في إطاره العلاقات الأسرية والاجتماعية.

وإذا ما أمعنا النظر في شعرنا العربي القديم فإننا نلحظ ارتباط الشاعر بالمكان وأول صورة فيه تتمثل في الوقوف على أطلال ديار الأحبة، ما شخَص من آثار الديار والرسم ما كان لاصقاً بالأرض، ويُقال حيا الله طلك واطلالك [١].

وقد سار الشعراء الجاهليون منذ امرئ القيس على ابتداء قصائدهم بالوقوف على الأطلال والبكاء على الديار، والاستطراد إلى وصفها. وجعلوا من ذلك شبه قاعدة فنية، لا يخرجون عليها إلاَّ في أحوال نادرة. حتى صارت الوسيلة الفنية الكبرى لافتتاح القصائد عند الشعراء هي الوقوف على الديار [٢].

(١) ينظر: لسان العرب، مادة (طلل): ١٩٢/٨.

(٢) ينظر: شعر الوقوف على الاطلال من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث دراسة تحليلية، د. عزة حسن:١٣.

أمَّا في شعر ابن الدهان، فقد ذكرت عِدّة أماكن صناعية تصور تعلقه بالأرض والوطن والمنزل، جعلته يطلق خياله ويعبر عن انفعالاته في صور جميلة تحكي تعلقه بالمكان الذي عاش فيه أو لجأ إليه، فصور مشاعره، التي تكشف عمَّا في داخله من معاناة أو غربة أو حنين.

Abstract

Industrial place: It is the place that a person creates in search of safety. It is the environment that embraces him and consists of the house, especially with its different names, such as a house or a home. It is the place of a person's residence and the place of his stability in general. It is within its framework that family and social relationships are formed.

If we look closely at our ancient Arabic poetry, we notice the poet's connection to the place, and the first image in it is represented by him standing on the ruins of the homes of his loved ones, what he identified from the ruins of the homes and the drawing that was attached to the ground, and it is said, "May God live, Talak wa Talak.

Pre-Islamic poets, since Imru' al-Qais, have begun their poems by standing over the ruins, crying over the homes, and continuing to describe them. They made this a quasi-technical rule, which they did not deviate from except in rare circumstances. Until the greatest artistic means of opening poems for poets became standing at home.

As for Ibn al-Dahan's poetry, I mentioned several artificial places that depict his attachment to the land, homeland, and home. They made him unleash his imagination and express his emotions in beautiful images that tell of his attachment to the place in which he lived or took refuge. He depicted his feelings, which reveal what is inside him of suffering, alienation, or longing .

المكان الصناعي لغةً واصطلاحاً

١-المكان الصناعي لغةً:

صنع في اللغة: صنعه يصنعهُ صُنعاً- فهو مصنوعٌ وصنع عقله. وقال ابن سيدة: صُنُوعها جمع لا أعرف له واحداً. والصناعة حرفة الصانع وعمله الصنعة والصناعة [١]. وما "أحسن صنع الله تعالى عندك، وفلان صنيعتك ومصطنعك "[٢]. ومنها قوله (ﷻ): ((وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي))[٣]

٢- المكان الصناعي اصطلاحاً:

ونعني بالمكان الصناعي "ما تدخل الإنسان في صنعه وتكوينه، وتقف هذه الأماكن على طرفي نقيض مع الأماكن الطبيعية"[٤]؛ فدوماً ما توجد علاقات تفاعلية تنشأ بين الإنسان والمكان[٥].

وعرَّف بعض الباحثين المكان الصناعي قائلاً: " المكان باعتباره السياق الجغرافي والمعماري للسلوك. فهو – أي المكان-يشير إلى حيز ما يحيط بالإنسان ويطلق عليه هذا الإنسان اسماً. وهذا المكان لابد أن يتسم بصفات محددة ومحسوسة [٦]، فالإنسان يصنع مكانه بحسب ظروفه الاجتماعية والنفسية ويرتبط به، ليصبح جزءاً مهماً من حياته، فينتمي إليه.

ويُعد الجسد الإنساني "امتداداً للمكان وحسب قوانينه يتشكل ويتكون"[٧]. إذاً فالمكان هو" وطن الألفة والانتماء الذي يمثل حالة الارتباط البدائي المشيمي برحم الأرض- الأم"[٨]. فيه تكوّن ومنه وُلِد.

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادة (صنع): ٧/٤١٩-٤٢٠.

(٢) اساس البلاغة: ١/٥٦٠.

(٣) طه: ٤١.

(٤) المكان في الشعر العراقي الحديث: ٤٣.

(٥) ينظر: الوعي بالمكان ودلالاته في قصص محمد العمري، شاكر عبد الحميد :٢٤٩.

(٦) الوعي بالمكان ودلالاته في قصص محمد العمري، شاكر عبد الحميد: ٢٤٩.

(٧) مِنَ المكان إلى المكان الروائي، خالد حسين حسين: ١٥٥.

(٨) جماليات المكان: ٧٧.

المنزل– الدار–البيت:

المنزل اسم مكان من نزل، وهو مفرد يُجمع على منازل ويطلق على المنزل كذلك الدار ويُعد المنزل كذلك الدار محل مقام الإنسان [١]؛ إذ تتشكل داخله العلاقات والروابط الأسرية، التي هي اللبنة الأولى لتكوين المجتمع ككل.

ومن الألفاظ المكانية المرادفة للفظة (المنزل)، التي تُعطي المعنى ذاته، لفظة (البيت) التي تعني" المأوى والمآب ومجمع الشَّمْل. يُقالُ بَيْتُ وبُيُوتٌ وأبياتٌ"[٢].

إنَّ البيت " كيان مميز لدراسة ظاهراتية لقيم ألفة المكان من الداخل، شرط أن ندرسه كوحدة وبكل تعقيد"[٣]؛ فالبيت مثلما المنزل والدار، يضم الإنسان ويأويه ويحميه من الأخطار، فيتخذ صفة الحماية. وهو" يمدنا بصورة متفرقة، وفي الوقت ذاته؛ يمنحنا مجموعة متكاملة من الصور"[٤] وتختلف الرؤية إلى البيت بحسب مشاعر الشخص وطبيعة ارتباطه به.

وإذا ما كان الشاعر ينفعل نحو المكان انفعالاً عاماً، فإنه ينفعل نحو البيت انفعالاً خاصاً أكثر حميمية. وكل الأماكن التي يراها الشاعر تقترن عنده بيت/ منزل الطفولة، فيقيس عليه مدى قدرة هذه الأماكن على منحه الشعور بالألفة والأستقرار [٥]، فيغدو البيت العالم الداخلي للإنسان الذي ينظم علاقته بالعالم الخارجي [٦].

إنَّ البيت يعكس" الحس المكاني للشاعر، فيرمز إلى عالم الشاعر الداخلي وعلاقته بالعالم الخارجي والأثر المتبادل بين الاثنين بحيث تصبح علاقة جدلية بين البيت والمحيط الخارجي"[٧].

يُسخر ابن الدهان لفظة (منزل) في مقدمته الطللية قبل أن ينفذ إلى مدح الناصر صلاح الدين الأيوبي، واصفاً شدة شوقه إلى المحبوبة، قائلاً [٨]: [بحر الكامل]

---

(١) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر:٢١٩٧/٣.

(٢) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا :٣٢١/١.

(٣) جماليات المكان (باشلار): ٣٥.

(٤) المصدر نفسه:٣٥.

(٥) ينظر: المكان في الشعر العراقي الحديث:٤٣.

(٦) ينظر: المصدر نفسه: ٤٠–٤٤.

(٧) المصدر نفسه:٤٦.

(٨) الديوان:٢٦.

هـــل يَعْلـــمُ المتحمّلـــونَ لنْجعَـــةٍ إنّ المنـــازلَ أَخْصَـــبتْ مـــن أدمعـــي

يبدأ الشاعر البيت باستفهام تعجبي؛ إذ يتعجب من كثرة بكائه لفراق المحبوبة، حتى إن هذا المكان/ المنازل أخصبت واخضرت من كثرة ما جرى من عينيه من دموع، وهذه المنازل-هنا-كناية عن ديار المحبوبة، والأماكن التي تتواجد فيها، أو تنتقل منها.

ويؤكد ذلك في البيت الذي يليه بقوله [١]:

كـــم غـــادَروا حَرَضـــاً وكـــم لـــوَداعِهم بَـــيْنَ الجـــوانحِ مِـــنْ غَـــرامٍ مُـــودَعِ

إن الأمكنة التي وظفها الشاعر، تزخر بكثير من الدلالات والأبعاد، فلم تعد مجرد تشكيل لأيقون بصري فحسب، بل صارت تكشف عن نظرة المؤلف إلى بيئته أو مجتمعهِ [٢].

فربما دلت اللفظة عنده على نظرة عامة تؤطر حالة بعينها يعيشها الشاعر.

ومن استعمالات ابن الدهان لفظة (منزل) وهو ماورد في معرض مدحهِ للقاضي الفاضل أبا علي عبد الرحيم البياني؛ إذ يقول [٣]: [البحر الطويل]

لـــولاكَ مـــا أَسْـــريتُ [*] لـــيلاً بحُـــرَةٍ [**] مـــن المَنْـــزِلِ الأَدْنـــى إلـــى الغايـــةِ القصْـــوى

وفـــاءً.. لحـــقِّ الـــودِّ لا تابِعـــاً مُنـــىً ولا بائِعـــاً شِـــعراً ولا طالِبـــاً جَـــدوى

يستهل البيت بأداة الشرط (لولا) وهي حرف امتناع شيء لثبوت غيره، متضمن معنى الشرط [٤]. فإذا ما تأملنا البيتين، بعد التأمل فما أورده شارح الديوان، يُمكننا القول إنَّ لفظة (حرة) ههنا تؤول بوجهين:

الأول:

إنَّ المقصود بالحرة (أهل بيت الشاعر) أي زوجته، وهذا ماذكره شارح الديوان. وأمَّا المنزل فمقصود به (بيت الشاعر)، أي المكان الحقيقي الذي يُعد موضع سكناه واستقراره،

---

(١) الديوان:٢٦.

(٢) ينظر: المكان والحرية في رواية "الأشجار واغتيال مرزوق " لـ" عبد الرحمن منيف، صبرينة رحماني:٩.

(٣) الديوان:٨٤-٨٥.

(*) اسريت، السرى: السير ليلاً، ينظر: لسان العرب، مادة (سرى):٦/٢٥٦.

(**) حُرة: لعله يريد بها زوجه، ينظر: الديوان:٨٤.

(٤) ينظر: موسوعة معاني الحروف العربية: ١٩٨.

وبذلك يصبح البيت الأول كناية عن عدل القاضي الفاضل وانتشار الأمان في زمانه؛ فلولا عدل هذا القاضي الفاضل وشدة حزمة لما عمَّ الأمان البلاد، ولما استطاع أن يخرج– أي الشاعر– بأهل بيتهِ ويمشي بهم ليلاً من بيته إلى مقصده البعيد، وزيارة من يبتغي. والدليل على ذلك أن الشاعر يمدح القاضي في البيت الذي يليه مدحاً خالصاً وفاءً منه له على ما حققه من عدل وأمن، مدحاً غير تكسبي فهو لا يبتغي من ورائه مالاً ولا عطاءً.

والثاني:

إن لفظة (حُرة) أراد بها أبياته المدحية الخالصة التي انتجها الشاعر من وحي خياله، لا يبتغي بها تكسباً أو منفعة دنيوية. وبذلك يكون البيت الأول استعارة تصريحية؛ لأنه صرح فيها بلفظ المشبه به، فقد شبه الشاعر أبياته المدحية بالمرأة الحرة، التي لولا عدل القاضي، وما أدى إليه من شيوع الأمن والأمان لما خرج الشاعر من منزله إلى الغاية القصوى، وهي قصد الممدوح نفسه ومدحه بتلك الأبيات المدحية الحرة والخالصة، لا طالباً مكسباً ولا مبتغياً منفعة.

ولا ينفك الشاعر عن توظيفه لفظة (منزل)، ولا سيما في قصائده المدحية. ومن ذلك قوله في مدح ابن شيركوه [1]: [بحر الكامل]

حاشـى غَمامَـكَ أَنْ يفـارِقَ منْزلـي أوْ لا يكـون لَـهُ عليـه نُـزولُ

عبر الاستعارة التصريحية، يوظف الشاعر لفظة الغمام؛ ليؤكد كرم الممدوح وكبر جوده، فيشبهه بالسحاب المحمل بالمطر، يغمر منزل الشاعر ويغدق عليه بالخيرات والبركة. إنَّ المنزل ههنا، وإن كانت لفظة مكانية، فإنَّها تدل على بيت الشاعر وموضع استقراره، ولا سيما وقد أضاف إليها ياء المتكلم؛ فإنَّه " ليس مساحة مادية فحسب بل حالة احتضان (نفسي/ وجسدي)"[2]؛ ذلك أن المكان يُعد " أحد التقنيات الواجب توظيفها في النص، فقد يشكل انزياحاً ملحوظاً عن اللغة المألوفة للوصول إلى الغاية المرجوة من قبل صاحب النص"[3].

ويوظف الشاعر الجناس الناقص بين لفظتي (منزل–نزول) ليؤكد استمرار تدفق عطاء الممدوح على بيت الشاعر.

---

(١) الديوان:٩٢.

(٢) المكان في شعر ابن زيدون:٢٧.

(٣) المكان الأليف في شعر الأرجاني، دعاء علي عبد الحسين:٨.

وإذا ما أتت مفردة (منزل) مفعولاً به لجود الممدوح فلا يفارقه، فإنَّه ينفي أن ينقطع نزول غيث الممدوح على المنزل نفسه. وقد أكد النزول بالضمير الهاء المجرور بحرف الجر (على).

ووردت لفظة (منزل) كذلك في مدحه الوزير جمال الدين [*] الملقب بالجواد، إذ يقول[١]: [بحر البسيط]

لو حثَّ غيثاً على اِسْعادِهِ قَسَمُ لواصَلتْ مَنْزِلاً بالموصل الدِّيَم

لهفي على طِيب عَيْش كُلّه عَجَبٌ وَلّى وأَعْقَبَ ذِكْراً كلّه نَدمُ

يوظف الشاعر أسلوب الشرط والاستعارة التصريحية في البيت الأول لوصف كرم ممدوحه، فضلاً عن تواضعه، متحسراً على أيام كرمه وجوده؛ ذلك أَنَّ الممدوح كان مسجوناً حين نظم ابن الدهان قصيدته هذه فيه. استعار ابن الدهان لفظة القسم (فاعلا) يحث الغيث (مفعولاً به)، ليؤكد وصول عطايا الممدوح إليه في منزله بالموصل، دِيَماً تغمره. وهكذا فإنَّه في البيت الثاني يتحسر على طيب العيش الذي كان فيه، وقد ولى معقباً وراءه الندم والأسف.

وفي معرض مدحه أبا الغارات طلائع بن رُزِّيك، الملقب بالملك الصالح [٢]، يستعمل لفظة (منزل)، ليصف منزلة ممدوحه العالية. فيقول [٣]: [بحر البسيط]

يخافُكَ المَلْكُ ناءٍ [**] عنك منْزِلهُ ويُقْتِرُ [***] المرءُ عن بُعْدٍ فيرجوكا

يشكو اِليك بنو الآمال فَقْرهُمُ فينْثنون وبَيْتُ المالِ يَشْكوكا

(*) هو جمال الدين الجواد أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور، كان أبوه علي من أصفهان وهو صاحب الوزير شمس الملك بن نظام، وكان جده أبو منصور فهاداً في عهد السلطان ملكشاه، تدرج في الرتب حتى نال رتبه وزير، قَصده الشعراء من كل فج، وقاموا بمدحه، ثم قُبض عليه وبقي في السجن. سنة وتوفي في شعبان سنة ٥٥٩هـ، ينظر: خريدة العصر وجريدة القصر (قسم شعراء العراقيون): ٣٠١/١.

(١) الديوان: ٢٠٩.

(٢) ينظر: الأعلام: ٢٢٨/٣.

(٣) الديوان:٢٢١.

(**) ناءٍ: البعيد، المكان البعيد، ينظر: لسان العرب، مادة (نأي): ٧/١٤.

(***) يقتر: ضاق عيشه، وافتقر، ينظر: لسان العرب، مادة (قتر):٣٠/١١.

تدل لفظة (المنزل) في البيت الأول على علو مكانة الممدوح ورفعة شأنه، حتى إن الملوك تخاف من سعة حيلته وعلو منزلته بين الناس؛ وذلك لشدة كرمه وغزارة عطائه، فالبيت الأول كناية عن وفود الفقراء إليه ليُغنيَهم بعطائه. أمَّا البيت الثاني فاستعارة مكنية؛ إذ استعار ابن الدهان الشكوى بيت المال، للدلالة على غزارة عطائه، حتى إن بيت المال هذا صار يشكو الممدوح؛ لأنه أفرغه مما كان فيه من أموال، استجابة منه لشكوى الفقراء من ضعف الحال، مؤكداً ذلك بتكراره الضمير (الكاف) ثماني مرات، مما اضفى على أبيات القصيدة ايقاعاً موسيقاً مفعماً بالحركة بما يناسب جو القصيدة من شكوى حاجة وتلبيتها؛ فتكرار الحرف يجعل" النص الشعري يتصاعد منه إيقاعات موسيقية متنوعة تجعل السامع يعيش الحدث الشعري المكرر"[1].

ويقول في مدح القائد صلاح الدين الأيوبي [2]: [بحر الكامل]

أَعلِمْــتَ بعْــدكَ وَقْفَتَــي بــالأَجرَعِ (*) ورِضَى طلولِكَ عن دُموعي الهُمَّعِ (**)

مطَـرتْ غَضـاً فـي منزليْـك فَـذاوياً (***) فــي أرْبُــعٍ ومُؤجَّجــاً(****) فــي أَضْــلعِ

يقوم ابن الدهان في هذين البتين بحشد جمع من الألفاظ المكانية؛ إذ يوظف لفظة (الاجرع) الدالة على المكان الطبيعي الواسع والكثيب؛ ولفظة (الطلول) الدالة على الاثار المتبقية من ديار الممدوح، ولفظة (منزليك) التي أعطت في البيت الثاني دلالتين:

إحداهما حقيقية والأُخرى مجازية. أمَّا الحقيقية فأراد بها بيت الممدوح، أي محل سكناه وموضع استقراره. وأمَّا المجازية فالدلالة على مكانته العالية في قلب الشاعر، لمواقفه

---

(١) بلاغة التكرار والجناس في شعر ابي القاسم الشابي، د. انتصار محمود حسن سالم: ١٠٨٣.

(٢) الديوان:٢٥.

(*) الأجرع: المكان الواسع الذي فيه حُزونة وخشونة؛ والاجرع كثيب جانب منه رمل وحجارة، ينظر: لسان العرب، مادة (جرع): ٢٥٣/٢.

(**) الهمع: همعت عينه، همع الدمع والماء ونحوهما، ينظر: لسان العرب، مادة(همع): ١٣٢/١٥.

(***) ذاويا: النبت إذا ذبل ويبس لقلة الماء، ينظر: لسان العرب، مادة (ذوي): ٧٢/٥.

(****) مؤججاً: ملتهباً، والأجيج هو لهيب النار، والأجيج صوت النار، ينظر: لسان العرب، مادة (اجج): ٧٦/١.

السامية وامجاده المحفورة في ذاكرة الناس، فضلاً عن الشاعر نفسه. كما وظف لفظة (أضلع) التي أعطت ههنا دلالة مكانية، أي مكان القلب وموضع استقراره.

استهل الشاعر قصيدته بالاستفهام (أعلمت بعدك) ليخرج إلى غرض مجازي وهو التعجب والاستنكار؛ إذ يستحضر صورة الممدوح، مخاطباً إياه وكأنه واقفٌ أمامه، باكياً على أطلال منزله، شاكياً مرارة فراقه، متعجباً مما حدث له–أي للشاعر– من بعده ومستنكراً إياه، فضلاً عما حدث للديار من خراب وقد ذهب صاحبها (الممدوح) العادل.

تدل على ذلك الألفاظ التي استعملها (أعلمت–وقفتي–طلولك–دموعي–منزليك–غضا–أضلعي) التي تظهر عمق عاطفة الشاعر وصدقها تجاه الممدوح، وكأن الشاعر يستذكر الماضي الجميل والخير الذي كان ينعم فيه برفقة ممدوحه، ويقارنه بحاضره وهو يُعاني مرارة فراقه، وما أصابه بعده من حزن.

ويستعير الشاعر صفة الرضى للطلول فيعطيها هذه الصفة الإنسانية في وقفة طللية، يستحضر فيها ذكرياته مع ممدوحه، التي أججت نار الشوق بين ضلوعه واحزنت قلبه. وكأن الشاعر يذرف الدموع الغزيرة حزناً أمام تلك الآثار المتبقية وعليها، حتى ترضى تلك الآثار وتزهر مجدداً من غزارة دموعه، بعد أن كانت مكاناً (أجرع) خشناً بمغادرة الممدوح إياها.

وهذا ما أكده في البيت الثاني؛ فدموعه كانت غضة رقيقة على (منزل) الممدوح، وكانت عميقة منسابة على ما حوله من (أربع)، لتؤجج نيران الألم والحزن والشوق في ما بين (أضلعه).

ويُعبر ابن الدهان عن شوقه إلى الأحبة وألمه لفراقهم، موظفاً لفظة الدار، التي تعد من الألفاظ المكانية الرديفة للفظة (منزل) فيناجيها قائلاً [١]: [بحر البسيط]

ونــازِحي الــدَّار صَــبْري عــنهمُ طَبــع والصــبْرُ عــن بَعْــضِ مــا فارقْتُــه كــرَمُ

يُعلن ابن الدهان في هذا البيت عن قدرته على الصبر، وتحمل ألم البعد عن الأحبة النازحين والتأقلم معه؛ فلا خيار له سوى أن يلجأ إلى الصبر والتسلي به لكثرة ما مر به من مواقف ودّع فيها الأحبة وفارقهم، حتى صار الصبر طبعاً يتمثل به، وعادة يتحلى بها، تدل على كرم طباعه. وذكر المكان هنا يعكس ما في قلبه من وجع وهو يحاول رسم صورة تعبر عن جوهر المعاناة التي يعيشها شاعراً وإنساناً [٢].

---

(١) الديوان: ٢١٠.

(٢) ينظر: اشكالية المكان في النص الأدبي: ٣٣٥.

وفي القصيدة عينها يؤكد الشاعر شعوره بالاغتراب، فيقول [١]: [بحر البسيط]

لا تَتْرُكَنّـــي بَعيـــدَ الـــدّارِ مُغْتَرِبـــاً أَظْمـى وفـي وطَنـي مِـنْ جُـودِكَ الـدِّيَمُ

يستهل ابن الدهان بيته الشعري هذا بجملة طلبية تُفيد النهي (لا تتركني)، مستخدماً النون المضعفة، التي تؤكد حالة الاغتراب التي يعيشها، فيرجو الممدوح أن يعيده إلى داره/ وطنه؛ فقد طال غيابه عنه حتى هدّهُ الشوق إليه، فأتخذ" التذلل وسيلة للاستشفاع فينزف في أسى ماء وجهه، ويأسف لمصيره ويبكي غربتهُ، ويصور معاناته تصويراً مؤثراً"[٢].

ولفظة الدار هنا تُشير إلى الموصل، موطنه الذي يتحسر على فراقه، سائلا الممدوح أن يساعده في العودة إليها، ولا سيما أن خيرات هذا الممدوح نفسه تفيض عليها وتغطيها؛ ففي حين يعيش الشاعر في أرض غريبة، سعياً وراء الرزق تزخر داره/ الموصل بما يفيض عليه الممدوح /الوزير جمال الدين البياني.

إنَّ هذا البيت يصدر عن عاطفة جياشة إلى الدار/ الوطن/ الموصل. نقل بها الشاعر تجربته؛ فالشاعر المبدع يتخذ مادته من كونيات الحياة المعيشة ويتخذ اللغة من الصور المنعكسة من الأشياء، ومن خلالها تتولد الصور المكانية [٣]، وهذا ما نلحظه في شعر ابن الدهان، فقد كان شعره مرآةً تعكس واقعهُ الذي يعيش.

وفي وقفة طللية يستهل بها ابن الدهان قصيدة قالها في مدح ابن عصرون، يستذكر ديار الحبيبة فيقول [٤]: [بحر الطويل]

فَفاضَـتْ دمـوعُ العـيْنِ حتـى رأَيتنـي تلفَّـــتُّ نحـــو الـــدَّارِ لا أَسْـــتَبينُها

ورد هذا البيت في مطلع القصيدة، على غرار قصائد الشعراء القدامى، فإن "من السمات الفنية البارزة في شعر ابن الدهان تأثره باشعار الذين سبقوه فقد انفتح على نصوص سابقة، وبدت قصائده إعادة إنتاج لها، بعد أن يخضعها لتجربته الفنية الخاصة"[٥]. والدليل على ذلك أننا نلمح في هذا البيت تناصاً مع الشاعر الجاهلي امرئ القيس في صدر بيته الذي يقول فيه [٦]:

---

(١) الديوان:٢١٢.

(٢) شعراء شاميون في العصر الأيوبي: ١٣.

(٣) ينظر: جماليات المكان في شعر السياب، ياسين النصير: ١٤٧.

(٤) الديوان: ١٠٧.

(٥) شعراء شاميون في العصر الأيوبي:٤٦.

(٦) شرح المعلقات السبع: ٣٩.

فَفاضَــت دُمــوعُ العَــينِ مِنّــي صَــبابَةً عَلــى النَحــرِ حَتّــى بَــلَّ دَمعِــيَ مِحمَلــي

وأمَّا المكان/الدار في قول ابن الدهان ههنا، فهو مكان متخيل يرمز به إلى الوطن، أراد بوساطته أن يشكو غربته عنه وحنينه إليه. إن المكان هنا ليس ديار المحبوبة فحسب، وإنما وطنه الذي بَعُد عنه، والشاعر "إذ يتعامل مع المكان إنما يتعامل مع الزمن، والزمن لا يتوقف، وبالتالي حضور المكان لا يتوقف كذلك"(١).

وفي موضع آخر يوظف (الدار) توظيفاً مجازياً؛ ليصف ألم الفراق والحسرة والبعد عن الأهل والأحبة، إذ يقول (٢): [البحر الطويل]

فــلا يَعْــدُ دَاراً بــانَ العــيْش أَهلُهــا سوى وَاكف(*) الأَجفان مِنَ وَابل السُّحْبِ

ففي هذا البيت تشبيه بليغ؛ إذ يشبه الشاعر أجفانه وقد خرج الدمع منها، حزناً على فراق الأحبة، بالدار التي تركها أهلها، فأجفانه دارٌ، ودموعه أهلها.

فالدار المكان في هذا البيت أصبح رمزاً للحنين والشوق، والحزن على فراق الأحبة، مستخدماً لغة رقيقة تعبر عن حالته النفسية، وتسجل ما يعيشه من ألم ووجع بسبب الفراق؛ فاللغة عبرت عن المكان "بشتى انواعه وأبعاده فمن خلالها نتعرف عليه في النصوص الأدبية...فتجسيد المكان وجود لغة واللغة لكي تظهر تحتاج إليه كموضوع"(٣) وهكذا عبرت لغته في هذا البيت عن شدة حزنه وحكت غزارة بكائه على مفارقة الأهل والأحباب.

أمَّا لفظة (البيت) رديفة المنزل /الدار، فقد جاءت في معرض مدحه الملك القاهر ناصر الدين محمد بن شيركوه، موظفاً إياها، في معرض تأكيد شرف أصلهِ وعلو نسبه فيقول(٤): [بحر الكامل]

يــا ابــن الأَكــارِمِ كــابِراً عــن كــابرٍ طَابَــتْ فُــروعٌ مِــنهُمُ وأُصُــولُ

بيــتٌ مــن الأدنــاس خــالٍ مُقْفِــرٌ ومــن المكــارِمِ عَــامِرٌ مــأْهُول

---

(١) اشكالية المكان في النص الأدبي: ٣٢١.

(٢) الديوان:١٤٦.

(*) واكف: وكف الدمع والماء، قطرات، ينظر: لسان العرب مادة (وكف): ٣٨٥/١٥.

(٣) شعرية المكان رواية "جلدة الظل من قال للشمعة أف" فريدة لعتيقي، سهيلة تواني:٢٣.

(٤) الديوان: ٩٠.

رأْيٌ يضـــيءُ إذا الحـــوادثُ أَظْلمـــتْ فَـــدجتْ ويمضـــي والحســـام كَليـــلُ

ونَـــــدىً إذا يَممْتَـــــه فَســـــأَلْته سَـــاَلتْ عليـــكَ مـــن العَطـــاءِ سُـــيُولُ

يستعمل الشاعر لفظة (بيت) استعمالاً مجازياً؛ إذ يذكر البيت ويريد أهل الممدوح وقومه، فالممدوح من فرع ذي أصل طيب، فهو ابن الأكارم كابراً عن كابر.

ويقابل الشاعر بين (خالٍ مقفر) و (عامر مأهول) مؤكداً بهذا التضاد المعنى الطيب الذي أضفاه على ممدوحه من أصل شريف ونسب رفيع؛ فالتضاد " من أهم عناصر الابداع في العمل الشعري، لأن الحياة مؤلفة من ثنائيات قائمة على التضاد فلا يستقيم فهم المعنى إلاَّ من خلال هذه الثنائيات المتضادة"[1] مضفياً على الممدوح صفات الحكمة والشجاعة والكرم؛ وبذلك يجد المتأمل في شعر ابن الدهان من الصلات المعنوية والنفسية ما لا يخفى، مما يحققه داخل الاطار التقليدي من وحدة السياق والشعور[2]، وتلك حال الشعراء الذين يعيشون المعاني والأفكار قبل أن تفرض قسمها عليهم مفرداتٍ وتراكيب.

(١) غزل الشواعر في العصر العباسي أنماطه وخصائصه:٨٠.

(٢) ينظر: شعراء شاميون في العصر الأيوبي:٢٧.

الخاتمة

يشغل المكان حيزاً مهماً في شعر ابن الدهان الموصلي وقد ارتبطت صورته بدلالات تاريخية وسياسية واجتماعية، فهي تُخلِّد شخصيات العصر الأيوبي التي عاصرها وعاش أبرز إنجازاتها العسكرية والسياسية.

من الأمكنة الصناعية البيت أو الدار أو المنزل رمز لعالم الشاعر الخاص الذي يشعر بالأمن والاستقرار، حتى غدا بُعده عنه مثاراً للشعور بالغربة بما يعنيه من حاجة وألم. والمنزل في شعر ابن الدهان يُعد ارتبط بواقع الإنسان وموضع استقراره. ويستعمل ابن الدهان الألفاظ المكانية في قصائده استعمالات متعددة ليصور من خلالها جمالية المكان أو ليجعلها ساحة يمدح من خلالها الممدوحين .

كما وظف لفظة (المنزل) ومرادفاته في نسجه لأبياته وذلك لما للإنسان من ارتباط بمنزله؛ إذ يُصبح جزءاً من كيانه ومن حبه لبيته الذي يمثل الوطن، إذ إنَّ الشاعر يكون أشد ارتباطاً بمنزله، لأنه شاهد على كثير من انفعالاته ومشاعره وهمومه وأحزانه وأفراحه.

ثبت المصادر

- أساس البلاغة، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٩٩٨م.
- إشكالية المكان في النص الأدبي، دراسة نقدية، ياسين النصير، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق – بغداد–١٩٨٦م.
- الاعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستشرقين، خير الدين الزركلي، ط١٥، دار الملايين، د. م، ٢٠٠٢م.
- بلاغة التكرار والجناس في شعر ابي القاسم الشامي، انتصار محمود حسن، كلية التربية الإسلامية والعربية للبنات، اسكندرية، العدد ٣٢،
- جماليات المكان في شعر السياب، ياسين النصير، د. ط، دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع، د. م، ١٩٩٥م.
- جماليات المكان، اعتدال عثمان، مجلة الاقلام، د. م، ٤٤، شباط ١٩٨٦م.
- جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة غالب هلسا، ط٢، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان–بيروت، ١٩٨٦م.
- خريدة القصر وجريدة العصر، عماد الدين الأصبهاني الكاتب–القسم العراقي، تحقيق: محمد بهجة الأثري، د. جميل سعيد، د. ط، مطبعة العلمي العراقي، د. م، ١٩٥٥م.
- ديوان ابن الموصلي، أبو الفرج مهذب الدين عبد الله بن اسعد (ت:٥٨١هـ)، تحقيق: عبد الله الجبوري، ط١، مطبعة المعارف، بغداد، ١٣٣٩هـ–١٩٦٨م.
- شرح المعلقات السبع، الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني (ت ٤٨٦هـ)، د.ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، د. ت.
- شعراء شاميون في العصر الأيوبي، د. شفيق محمد عبد الرحمٰن الرقب، ط١، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، الأردن – عمان، ٢٠٠٩م.
- شعرية المكان في رواية "جلدة الظل من قال للشمعة أف؟ " لعبد الرزاق بوكبة" أنموذجا، فريدة العتيقي، سهيلة تواتي، رسالة ماجستير، بإشراف: لونيس بن علي، كلية الآداب واللغات–جامعة عبد الرحمن ميرة–بجاية،٢٠١٢– ٢٠١٣م.
- غزل الشواعر في العصر العباسي أنماطه وخصائصه، مثنى عبد الله جاسم، ط١، دار مجدلاوي، عمان – الأردن، ٢٠١٤م.
- لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: امين عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي، ط٣، دار احياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ١٩٩٩م.

- المكان الأليف في شعر الأرجاني، دعاء علي عبد الحسين، رسالة ماجستير، بإشراف: رباب صالح حسن، كلية التربية، جامعة المستنصرية، د. ت.
- المكان في شعر ابن زيدون، ساهرة عليوي حسن العامري، رسالة ماجستير، بإشراف: د. هناء جواد عبد السادة، كلية التربية، جامعة بابل، ٢٠٠٨م.
- المكان والحرية في رواية "الأشجار واغتيال مرزوق" لـ"عبد الرحمن منيف، صبرينة رحماني، رسالة ماجستير، بإشراف: جمال مباركي، جامعة محمد خيضر، ٢٠١٦م.
- من المكان إلى المكان الروائي، خالد حسين حسين، مجلة المعرفة، العدد، ٤٤٢، ٢٠٠٠م.
- الوعي بالمكان ودلالاته في قصص "محمد العمري"، شاكر عبد الحميد، فصول، العدد ١٣، ١٩٩٥م.